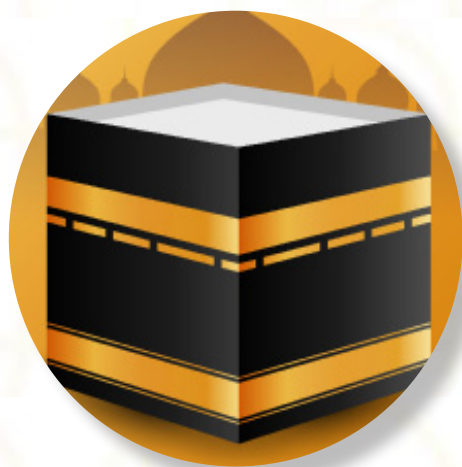


(من كتاب الحج وروح العبادة فيه)

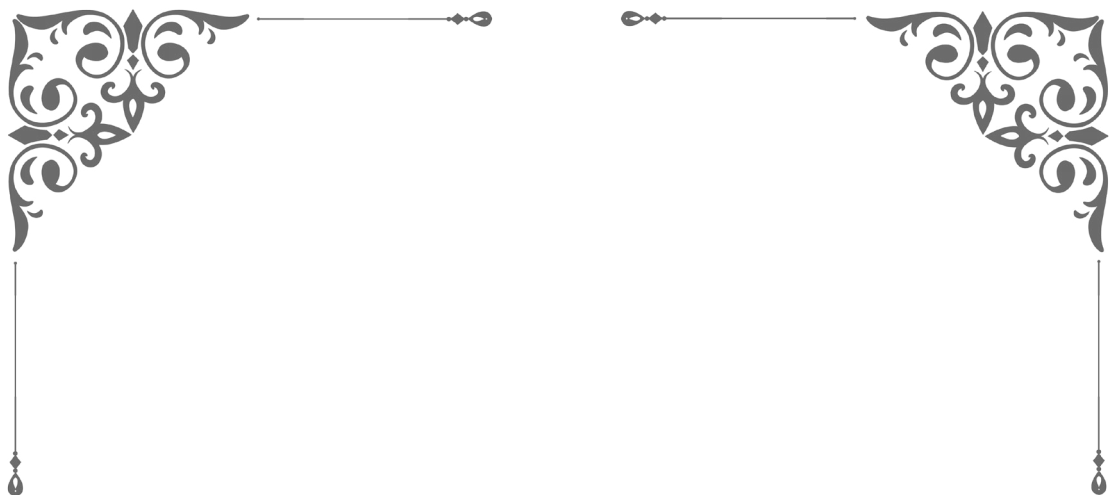
(١٩)

الحج والتوبة والاستغفار

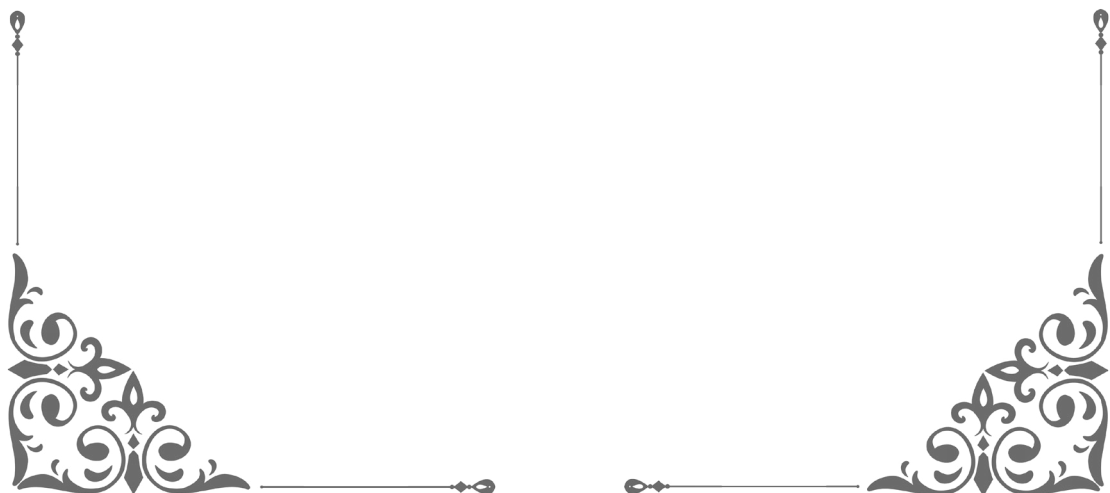


تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني



محفوظ جميع الحقوق





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحاجُّ إلى بيت الله الحرام إنما أخرجه من بيته استجابته لربه الذي أمره بذلك، فقد أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، ويؤذن في الناس بالحج، فاصطفى الله من شاء من عباده لهذا النسك، ووفقهم للاستجابة لهذا النداء وهم في أصلاب آبائهم، ولَبَّوا هذا النداء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿١﴾.

ويحمل الحاجُّ إلى بيت الله الحرام -أيضاً- الرغبة في نيل ما ورد فيه من فضائل، فقد قرأ ما أعدَّه الله من ثوابٍ للحجاج، من مغفرة الذنوب كلها، والوعد بالجنة، فطمعت نفسه لإدراك هذا

(١) [سورة الحج: الآيات ٢٦-٢٨]



الفضل، وتاقت رُوْحُه للحصول على هذا الخير، وكثيرًا ما كان الحجُّ موعِدًا لتوبة التائبين، وإِنابة المخبتين، وعودة الشاردين، ورجوع النادمين.

لقد رأوا فضل الله عليهم بالتوفيق لهذه العبادة، وتيسير الأمور لهم بالوصول إلى مواطن الرحمة والخيرات، وتذكروا مَنِّته عليهم بتسهيل هذا الفرض، وتهيئة أسبابه وتيسير سُبُلِه.

ورحمة الله ظاهرة في الحجِّ، فيقبل الحاجُّ عليه، وقد امتلأت صحيفته بالذنوب، واسودَّت بالخطايا، ويبقى في الحجِّ أيامًا معدودات، فتمحى تلك الخطايا، وتُغفر تلك الذنوب.

فأي فضل أعظم من هذا الفضل!؟

وأي كرامة أشرف من هذه الكرامة!؟

فحقُّ على كل قاصد للحجِّ أن ينوي التوبة النصوح سواءً كان مسرفًا على نفسه في الذنوب - وهو أولى النَّاس بذلك - أو عنده ذنوبٌ لا يزال مُصِرًّا عليها - ولا يكاد أحدٌ منَّا ينفكُّ عن الذنب - أو طالبًا لمغفرة ربه وفضله، وكلُّ الحجيج طالبون ذلك، ولنوقن أنَّ حق الله على عباده عظيم ولا يوفيه أحد.



ومواطن التوبة للحجاج كثيرة، فمنهم من ينوي التوبة من حين عزمه على الحج، ومنهم من ينويها من بداية رحلته، ومنهم من يوفق لها بعد طوافه وسعيه، ومنهم من يسمع كلمة وموعظة فينتفع بها، وتكون سبباً لتوبته، وأكثر ما يكون من توبات في يوم عرفة، حين تخشع القلوب، وتذرف الدمعات، وتتوجه النفوس الصادقة إلى الله بطلب الإنابة والمغفرة، فيجعل الله فيها حب التوبة، فترى العبد بعد الوقوف بعرفة قد أقبل على ربه، مستغلاً يوم النحر وأيام التشريق بمزيد اجتهاد، مكثراً من دعاء ربه أن يربط على قلبه، ويثبتته على الهداية والاستقامة، ومنهم من يقبل على ربه بعد دعوات صادقات يدعوها عند الجمرات، بل ربما لا يوفق البعض للتوبة إلا في طواف الوداع، وهذا من رحمة الله بعبدته، فإن لله نفحات إذا أصابها عبده سعد سعادة لا يشقى بعدها.

فمثل هؤلاء ترى أحدهم بعد حجه كأحسن ما أنت راء من مؤمن تقي، قد أدى فرضه، وقام بحق ربه، مُجتنباً معاصيه، فيعينه ربه ويسدده، ويصرف عنه الشرور والفتن حتى يلقي ربه وهو راضٍ عنه، وكل هذا من توفيق الله له.



إنَّ الطاعات التي يُؤدِّيها الحاجُّ على أكمل وجه، وما يكون من دعاء صادقٍ بإخلاصٍ وإخباتٍ بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ذلك له أثره العظيم في الرغبة بالتوبة، والعزم على البعد عن المعاصي، خاصةً وقد شَرَّفَهُ اللهُ بأداء هذه العبادة، فكيف يتدنَّس بالخطيئات وقد طَهَّرَ منها؟! وكيف لا يستحي من ربه وقد عفا عن إساءته؟! عن إساءته؟!!

والتوبة منزلةٌ شريفة، ومرتبةٌ منيفة، أحبَّها اللهُ من عباده، وجعلها سبيل محبته، وطريق رضاه عنهم، وعفوه عن خطيئاتهم، وهي منزلة رفيعة، مَنْ بلغها فقد بلغ السؤدد من الخير والفضل، يكفيك في فضل التوبة محبة الله لأهلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (١).

وكلما أيقن العبد بحاجته لها وجدتهُ أسرع الناس للطاعة، وأبعدهم عن المعصية، لعلمه بعظيم حق ربه عليه، وتراه كثير الحياء منه، ويؤوب إليه على الدوام لإيمانه أن ربهُ أحقُّ من استُحي منه.

(١) [سورة البقرة: الآية ٢٢٢]



وأنت إذا رأيت بعض الحجاج وقد عادوا من حجهم، وأحوالهم كما هي من تفریط في الصلوات، وعدم تحرُّز من الذنوب والخطيئات، أيقنت بضعف أثر الحج عليهم، بخلاف من أدى الفرض بإتقان، وقام به على أكمل حال، فإنه ينتفع به النفع المرجو منه، فالله إنما شرع الشرائع لتهديب النفوس وإصلاحها، وتطهيرها من أدرانها، فما دمت في مناسك الحج، وفي مواطن الرِّحَمات، فاجتهد أن يكون حجك مبروراً، سليماً من الخطيئات، وإن وقعت في خطيئة أو ذنب -ولا يسلم أحد- فبادر إلى التوبة والندم وكثرة الاستغفار.

إنَّ مَنْ تفكَّر في سرعة زمن الحجِّ دعاه هذا إلى أن يستحضر سرعة زوال الدنيا، وارتحال المرء عنها، فهو يقدم إلى مكة والمشاعر، ثم لا يلبث إلا أياماً معدودات ويعود إلى أهله، وكأنه لم يغادرهم، وتمضي ساعات الحجِّ بسرعة عجيبة، وهكذا الدنيا تمضي وترحل، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْعٌ﴾ (١) وهذا من أعظم الدروس التي ينبغي استحضارها والانتفاع بها.

(١) [سورة غافر: الآية ٣٩]



ومن تأمّل في حاله وقد أدّى فرض حجّه على التمام، وسعى في إكماله، وحفظ جوارحه فيه، وإن وفق وحافظ على وقته وملاه بالطاعات، دعاه هذا إلى أن يعود باللوم على نفسه، فهي قادرة على الطاعات، ومستطيعه للقيام بأمر الله واستثمار العمر بما يُقرّبها إلى ربها، فلماذا خَلق الأعدار، وتَوَهّم عدم القدرة على الطاعة، وادّعاء صُعوبة فعل الباقيات الصالحات؟!

إنّه ليس أكرم على المرء من نفسه التي بين جنبيه، ولا إحسان كالإحسان الذي يقدمه لها، فلم يحرم أحدنا نفسه من الطاعات التي تنفعه، وتكون له زادًا ليوم التناد؟!

وإنها لفرصة للحاجّ أن يتنفع من هذا الفرض، وغنيمة يغتنمها الموفق ليجعل حجّه مُنطلقًا لما يقربّه إلى ربه، فالحياة الدنيا قصيرة جدًّا، والآخرة هي الحياة الحقيقية التي ينبغي السعي لها، وإيثارها، والعناية بشأنها.

ومن الحجّ يتعلّم المرء أنّ البيئة الحسنة والصحبة الطيبة لها أثرها على صاحبها، فقد صاحَبَ الحاجّ في حجّه الأخيار، وكانوا



الحج والتوبة والاستغفار



خير معينٍ له على الطاعة، فلمَ لا يحرص أحدنا على هذه البيئة،
وتلك الصحبة التي ستكون أعظم معين له على الاستمرار على
الطاعة، وخير سبيل لاستدامتها؟!!

اللهم وفقنا للتوبة النصوح، وخذ بأيدينا لما يُرضيك عنا
يارب العالمين.

